التصور الإسلامي في شعر
محمود حسن إسماعيل

تأليف

د . محمد عبد الحكم عبد الباقي

قسم اللغة العربية - جامعة قطر

مقـــدمـة :

إن الدخول إلى عالم محمود حسن إسماعيل الشعري يتطلب المزيد من الجهد بغية حصر معالمه المتنوعة ، كما يتطلب الصبر على ارتياد هذا العالم المتميز ، بل والتسلح أيضاً بثقافة أدبية ولغوية رفيعة تجعل صاحبها لا يقف عند القشور والسطحيات بقدر ما يدفعه ذلك إلى الإيغال والغوص في أعماق هذا العالم ليقرر - في نهاية المطاف - قدراته الفنية البارعة في رسم الصورة وتجسيد التجربة ، وبلورة الموقف .

فالشاعر وليد طبيعة ساحرة ، ووليد فترة زمنية أتاحت له قدراً من الثقافة لم يتح إلا لقليل من المبدعين ، ووليد أيضاً ظروف سياسية واجتماعية مهدت له فرص الذيوع والانتشار ليس في بيئته الإقليمية فحسب بل في عالمه العربي المتسع .

والواقع أن الدارس لشعر محمود حسن إسماعيل في مجمله يدرك تأرجحه بين مجموعة من الأبعاد المتباينة : البعد الرومانسي منها والبعد الاجتماعي ، والبعد القومي ، والبعد السياسي ، والبعد الديني .

فنحن - إذن - أمام عالم فسيح يبدأ مع الساقية والشادوف والنهر والجبل والجدول وغير ذلك من صور الطبيعة التي ميزت بداياته الفنية في ديوانيه المشهورين «أغاني الكوخ» الذي صدر سنة ١٩٣٤م ، و «هكذا أغني» الذي صدر سنة ١٩٣٧م ، وينتهي بذلك إلى البعد الديني متمثلاً في مجموعة من الدواوين التي أسهمت في ظهور هذا المنحنى الجديد عند الشاعر .

ومن هنا يمكننا القول بأن شاعرنا عاش - على مدى فترة طويلة من رحلته الفنية - مع آيات الله في كونه ، وغلف كل هذا في نغمة حزينة ميزت شعره تمييزاً واضحاً ثم أعقب ذلك بصنوف من المناجاة التي تبلور دور الإنسان في هذا الكون وهدفه منذ خلقه الله ، ومحدوديته المطلقة أمام ذات الله العليا .

لقد بدأ الشاعر من الحب وانتهى أيضاً إلى الحب أي بدأ كأي شاعر بداية رومانسية حالمة صور فيها الطبيعة بكل ما تحوي من سحر وجمال وانتهى إلى تلك النزعة التصوفية التي تؤكد قول الله تعالى : ﴿ وما خلقتُ الجنّ والإنس إلاّ ليعبدُون ﴾ .

دوافـع المحـاولة :

ومما لا يمكن إنكاره أن شعر محمود حسن إسماعيل قد حظي بمجموعة من الدراسات النقدية

جاء أكثرها في صورة مقالات قصيرة تقدمت بعض دواوينه أو تذيلتها[1] وبعضها الآخر نشر في الدوريات المصرية أو نشر في ثنايا مؤلفات علمية طويلة استهدف القليل منها الوقوف على شعر الشاعر دون غيره[2] أما الكثرة الكاثرة فقد حرص أصحابها على دراسة شعره بين مجموعة من أعلام الحركة الشعرية في مصر[3].

وقد اتجهت معظم الدراسات التي كتبت عن شعره نحو تأصيل عنصر الطبيعية في شعره والتأريخ لرحلته الفنية التي بدأت من النخيلة إحدى قرى أسيوط وانتهت في القاهرة وما تبع ذلك من تحول خطير لعب فيه المكان دوراً أساسياً في تحديد مساراته الفنية وأبعاده الشعرية . أما بقية الدراسات فكان سيرها حثيثاً نحو إبراز العناصر الفنية في شعره من تنويع نغمي وتنويع في الاستخدام الدلالي للألفاظ وتنويع في شكل الصورة الفنية . . وكذا في استخدام الرمز والموروث الأسطوري والديني والشعبي والتاريخي .

يتضح من هذا أن معظم الباحثين ناقشوا شعر محمود حسن إسماعيل من خلال أبعاد اجتماعية وطبيعية دون الخوض في مجال الإسلاميات عنده ، هذا باستثناء بعض الوقفات السريعة غير المتأملة التي وردت في رسالة الماجستير المقدمة من «محروس المتولي فرحات» إلى كلية اللغة العربية بأسيوط سنة ١٩٨٥م[4].

لهذا أحاول أن أدخل إلى العالم الشعري لمحمود حسن إسماعيل من خلال هذا البعد الديني الذي يقوم - في رأيي - على أركان ثلاثة هي :

- الله .
- الإنسان .
- الـكون .

ولعل هذا هو التصور الإسلامي الذي أقره المفسرون كما أقره العقل البشري إذ يبدأ من الله عز وجل وينتهي إليه وبين بدايته ونهايته نجد الإنسان الذي جعله الله خليفة له في الأرض حين قال :

---

(١) انظر دراسة د . علي عشري زايد تحت عنوان «محمود حسن إسماعيل وعالمه الشعري الفريد» . ديوان لابد ص ١٧٨ + دراسة د . شفيع السيد حول ديوان «هكذا أغني» ص ٢٧٤ .

(٢) انظر دراسة د . محمد علي هدية تحت عنوان شعر محمود حسن إسماعيل دراسة فنية + دراسة د . صابر عبدالدايم تحت عنوان محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة + دراسات أخرى .

(٣) انظر د . أحمد هيكل في كتابه دراسات أدبية + محروس المتولي - التيار الديني في الشعر المصري المعاصر ١٩٥٢ - ١٩٦٧ مخطوط + د . ماهر حسن فهمي الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث + د . عبدالمجيد الهندي - الشعر العربي الحديث . . إلخ .

(٤) الرسالة تحت عنوان التيار الديني في الشعر المصري المعاصر - مخطوط بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر - فرع أسيوط .

﴿ وإذْ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً ﴾[٥] - كما هيأ له سبل الحياة في الكون لينعم بها وليمارس حقوقه الذاتية طبقاً لقوله تعالى : ﴿ وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً ﴾[٦] وقوله أيضاً : ﴿ وهو الذي جعلَ لكم الأرضَ ذلولاً فامشُوا في مناكبها ﴾[٧] .

ومن ثم فإن هذه المحاولة تسعى إلى التعرف على حقيقة التصور الإسلامي عند محمود حسن إسماعيل من خلال شعره ، وهي حقيقة تنبع - في رأيي - من عقيدته الإسلامية الخالصة ، وفكره الإسلامي الذي ينظر إلى الإنسان في ضوء ما كلف به من عبادة صافية وإذعان متواصل لله «خالق كل شيء» .

الله في شعر محمود حسن إسماعيل :

تتهادى في معظم دواوين محمود حسن إسماعيل - ولا سيما دواونيه قاب قوسين ، وهدير البرزخ ، وصلاة ورفض ، ونهر الحقيقة ، وصوت من الله» . . - مجموعة من المناجيات لخالق الكون والعباد بعضها اتخذ الناحية التقليدية في الشعر والبعض الآخر ظهر في صورة ابتهالات روحية صادقة عمت ديوانه «صوت من الله» وهو ديوان أديرت محاوره حول لفظ الجلالة إذ هو الخالق للذات وللناس وللنفس والجبل والطبيعة . . إلخ .

إن ديوان «صوت من الله» يعلن الانصياع التام والانقياد الخالص لله عز وجل فهناك خوف يراود الشاعر من سوء العاقبة ، وهناك اعتراف بالذنب ورغبة في التوبة ، وهناك إصرار دفين على التحول من عالم الإثم والخطيئة إلى عالم السمو والنقاء . وهذا ما نستشفه في قصيدته «الله والموعد»[٨] التي يبرز فيها فلسفته ورؤيته للوجود واستعداده النفسي للتغيير يقول فيها :

حملت أمسي وغدي ... وسرت نحو الموعد
حتى وصلت شاطئا ... يهمس بالتشهد
وترتوي آفاقه ... بالنور والتعبد
فقلت : طيري واصعدي ... يا نفس حان موردي
فأجهشت وانتفضت ... بلحنها المردد

---

(٥) سورة البقرة آية (٣٠) .
(٦) سورة الجاثية آية (١٣) .
(٧) سورة الملك آية (١٥) .
(٨) أعيد نشر هذه القصيدة في ديوان قاب قوسين ص ١٠٩ تحت عنوان النفس والخطيئة .

كـل الخـطـايـا في يـدي يـارب أجـل موعـدي
فتـــوبـتي مـــؤودة في مهـدهـا لـم تـولـد

فالشاعر هنا يناجي نفسه ، ويدعوها إلى الاستعداد لهذا اللقاء المصيري فترتعد ويتنابها الذعر والخوف وتناشد ربها بتأجيل لحظة الحساب حيث لم يحن لتوبتها أن تؤتي ثمارها أو أن تظهر إلى الوجود ماثلة في صور الإحسان ، وكمال الأعمال .

وقد استطاع الشاعر أن يضفي بعض الملامح الجمالية في هذه الأبيات من خلال جمعه لصيغ الماضي والمضارع والأمر ، واستخدامه للغة الحوار التي أزكى بها الجو النفسي الذي يرتبط بما تفجره كلمات القصيدة من شحنات دلالية . هذا إلى جانب إيثاره للنداء وأساليب الطلب والتمني وغير ذلك من الأساليب الإنشائية التي تعكس أيضاً نفسيته وتضفي درامية واضحة على كلماته لكونها «أكثر إضاءة للمستوى الداخلي من الأساليب الخبرية»[٩] .

ولكن الشاعر لم تساوره الشكوك لحظة في حلول رضا الله على عباده ، فهو بطبيعته لا ييأس أو يقنط من رحمة الله ، وهذا ما دعاه إلى الاستمرار في الدعاء الصادق مع الاعتراف بالذنب والطمع أخيراً في مغفرة من الله ورضوان منه حيث يقول في نهاية القصيدة ذاتها :

قـلـبـي إلى نـــورك نشـوان بحـب سـرمـدي
منـطـــلق إلى سمـــاء بـابهـا لـم يوصـد
وجســـــدي محمـــل بـكـل ذنـب مبعـد
واصـلـت دق البـــاب حتـى كاد يمضي موعـدي
وكـاد يبـليـني سـعـير الإثـم حـول موقـدي
ربـاه بعـض الـتـوب والـغـفـران للمستشهد
نـزعـت ذاتـي وانـتـهـت حقـيـقـتي لـلأبـد
وجـئـت أدعـــو الله عـمـرا ثـانـيـاً لجسدي

إن الشاعر هنا يلخص قضية الإنسان في سعيه نحو مصيره المحتوم الذي لا يعلم شيئاً عن حقيقته أو منتهاه ، فهو يستشعر الذنب ويدعوه هذا الاستشعار إلى الإلحاح في الطلب والمناجاة فيعجا إلى تكرار بعض الصيغ مثل قوله : «كاد يمضي ، كاد يبليني» كما تتوالى الأفعال الماضية «واصلت ، نزعت ، انتهت ، جئت . . إلخ» ولكن سطوة المناجاة وطبيعة الموقف كانا وراء هذا التحول في لغة محمود حسن إسماعيل إذ أصبحت لغة عقلية إلى حد كبير في كثير من قصائده التي تنحو هذا المنحى

* * *

(٩) محمد بنيس - ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب - بيروت ١٩٧٩ ص ١٣٤ وما بعدها .

ولعل من دواعي عظمة الله وفضله أن سخر ما في الكون وذلله لراحة الإنسان وسعادته ولذا فالإنسان موكل بحفظ هذا الفضل ومقابلته بالتسبيح والحمد والثناء والمداومة على الطاعة والعبادة .

وحول هذه المعاني يدور نشيده «هو . . الله» الذي كتبه وهو في رحلته بالطائرة حيث تلاشى في الغيوم إحساسه بالعالم الأرضي ، وتناعمت الألحان حوله في الفضاء الفسيح تردد ذكر الله وتمجد ذاته العلية وقد يقول فيها :

هو الخلد الذي انحسرت جهاته
هو الله الذي انحجبت صفاته
عرجت إليه فوق جناح طير
هو الغيب الذي بيديه يسري
دليل وجود في كل شبر
وفي أعماق أعماق لسري !!

ثم يبحث الشاعب عن حقيقة الإنسان في ضوء ما يشعر به من إحساس ذاتي بالانعتاق من العالم السفلي والانغماس في تيار الزمن الذي لا حدود له ، وفي شعاعات النور التي تحتويه من كل جانب ، معبراً عن كل ذلك بالصورة الفنية المفعمة بالحركة واللون حيث تتداعى صوره في هذه الأشطر الشعرية[١٠] :

تبخر الطين الذي في بدني
وانصهر السور الذي حددني
وانسحق القيد الذي بددني
وصرت بعض النور . . بعض الزمن
بعض ضياء . . كان قد ذوبني
على تراب مظلم عذبني

انظر كيف استطاع شاعرنا أن يورد هذه الصور المتعاقبة التي تفيد التوكيد والحرص على هذا التحول ، وكذا ما توحي به الأفعال «تبخر ، انصهر ، انسحق» من شروع حقيقي فعال في التغيير والتحول ثم حرصه أيضاً على أن يعقب هذه الجمل الفعلية التي تدفع القارىء إلى الترقب بالفعل «صرت» ليفيد تبدل الأحوال وأن الأمر أصبح واقعاً حياً ، ولكنه أردف هذا كله بكلمة بعض وكررها ثلاث مرات مؤكداً بها نزعة صوفية واضحة المعالم تكشف عن صور الفناء في الذات العلية وضرورة التحول بالطبيعة الطينية القاصرة إلى طبيعة أخرى أكثر سمواً وطهراً .

---

(١٠) انظر ديوان صوت من الله ص ٢٥ ، ٢٦ .

والشاعر في سبيل الوصول إلى هذه الدرجة الرفيعة والمقام العالي يوضح معالم الرحلة التي تقوم على مجاهدة النفس والهوى والإكثار من التوسلات للذات العليا بقبول التوبة واستجابة الدعاء . . وهذا ينطلق - بطبيعة الحال - من يقين صادق ، وعقيدة راسخة بأن الله هو المهيمن على مقادير الأمور ومجريات الحياة ، ولذا فهو محط دائم لنظرات الإنسان ونداءاته ، وقد نستشف ذلك من قوله في قصيدة له بعنوان «الله والذات»[11]:

وقـفـت طويـلا على سدتـك
أنـادي ربي الـنـور في سدرتـك
أنـادي وأجـأر في حـومـة
من الـصـمـت تهدر في حضرتـك
وأنـشـق ذاتـين : ذاتـا تنـوح
وأخـرى تسـبـح من خشـيـتـك
. . . . . .
أجـرني يارب . . من كل شيء
يصـد طريـقـي إلى ومـضـتـك

ولنر هذا التسلسل اللفظي الدقيق يبدأ بالوقوف ثم النداء ثم الصراخ ثم الانشطار ، وما يفيده هذا التصاعد من استشراف لعناصر الدراما التي تقوم على الحركة والحوار . . هذا بالإضافة إلى اهتمامه بعنصر المبالغة الذي يؤكد به سعيه نحو تحقيق نوع من التواصل بين العالمين رغبة في الانطلاق من أرض القيود والأسوار إلى سماء الطهر والنقاء أو بمعنى آخر تخليصاً بالذات من العالم التحتي الذي يقيدها بحدود زمنية وغيبية إلى العالم الفوقي الذي تذوب فيه الأسوار والحواجز .

فالعلاقة بين الإنسان وبين ربه - كما نعرف - علاقة قائمة على السمع والرؤية إذ قد يرى الإنسان ربه في كل شيء كما يسمعه في كل شيء ، ومن ثم يلجأ الشاعر إلى تكرار الضمير «هو» في قصيدته المعنونة «مع الله»[12] ليؤكد قدر الخالق من ناحية ، وليبرهن على هذه الصلة الوثيقة بين المرء وربه من ناحية أخرى حيث يقول :

هو الحـب في كل خطوى أراه
وأسـمـع في كل همس صداه
هو الـظل . . إن مس قلبي الهجـير
هو العـطر . . إن غاب عني العبـير

---

(١١) المصدر السابق ص ٣٠ .
(١٢) انظر ديوان نهر الحقيقة ص ٩٠ .

هو الطهر . . فوق جبين الطفولة
هو الصفو . . في كل روح جميلة
هو الغنوة العذبة الصافية
تدندن للحقل والساقية
هو الخفق بين حفيف السنابل
هو الرزق يهواه حد المناجل
هو الفأس في قبضة الكادحين
هو العرق الحر فوق الجبين

وهنا ندرك فطنة الشاعر وذكاءه فهو لا يلجأ إلى التكرار المخل للمعنى أو كالذي يعتبره النقاد والبلاغيون حشواً لا طائل من ورائه ، وإنما يلجأ إلى تكرار الضمير الذي يعود إلى الخالق الذي لا تحصى أنعمه وفضائله ، ولهذا كان التكرار واجباً وضرورة حتمية يفرضها الالتزام بالواجب نحو رب العباد .

كما يجرنا ذلك إلى تفسير تكراره لمجموعة من الألفاظ ذات الدلالات الرامزة التي تؤكد هذه الحقوق الإنسانية نحو خالقهم مثل الصلاة والتوبة ، والنور ، والقلب والفجر ، والإيمان والنفس والطهر والروح . . إلخ وهي ألفاظ تؤكد بصدق أن الشاعر «يمتلك معجماً شعرياً يوشك أن يكون خاصاً ، وهو معجم تصب فيه روافد عديدة أهمها الألفاظ التي تصور الجو المصري الصعيدي الديني بكل موروثاته العربية والفرعونية والقبطية والإسلامية»[١٣] .

* * *

الإنسان في شعر محمود حسن إسماعيل :

الإنسان في أصله مركب من عنصرين مرتبطين فهو قبضة من طين لازب ونفخة من روح الله ، ولذا يسعى جاهداً إلى تحقيق التوازن الدائم بين حاجات كل عنصر على حده دون أن يحدث طغياناً على جانب دون الآخر مع علمه بأن الإخفاق في تحقيق هذا التوازن هو تجاهل لإنسانيته وضياع لها .

وليس هذا خارجاً عن الإطار الإسلامي بل هو - فيما يرى الدكتور عبدالحميد إبراهيم - «جوهر الإسلام الذي يؤكد النظرة الوسطى التي لا تغلب جانباً على حساب الجانب الآخر ، كما أنه وضوح واستقامة وحركة بين الأشياء مستمرة لا تهدأ مادام المرء يعيش حالة الرجاء والخوف معاً ، وهادفة لا تصل إلى حد القلق المرضي لأنها محوطة بعناية الله»[١٤] .

---

(١٣) د . أحمد هيكل - دراسات أدبية ص ١٧٨ .
(١٤) د . عبد الحميد إبراهيم - الوسطية العربية ص ٣٢٢ .

ولعل الشاعر محمود حسن إسماعيل قد أدرك هذه العلاقة بين الإنسان وخالقه من ناحية وبينه وبين بني جنسه من ناحية أخرى ، وهو في ذلك ينبىء عن حس إسلامي رفيع يؤكد أن تعامل الإنسان مع ذويه عبادة وذلك لأن الإسلام ينشد حياة كريمة للإنسان تتحقق فيها كل المعاني الإنسانية التي تتلاءم مع تفضيل الله عز وجل له على سائر المخلوقات .

ولقد ظهرت له عدة قصائد متناثرة في دواوينه الكثيرة «عالج من خلالها قضايا النفس البشرية في صراعها بين الأرض والسماء وترددها بين الطين والنور وتطلعها إلى الحق والتصاقها بالإثم واعتزازها بالحرية والاختيار وتعللها بالقيود والجبر ، والشاعر في ذلك كله لا يلجأ إلى الميتافيزيقا ليلقى أعباءه ويطوح مسئوليته أو ليريح نفسه ويلوذ بالسلبية ، وإنما هو يتخذ من التجارب الميتافيزيقية مجالاً لإبراز صراع يعمق الإحساس بقضاياه من أجل خير الإنسان وحريته ومن أجل تشييد عالمه الأفضل»[١٥] .

فالشاعر هنا يحس إحساساً صادقاً بمعاناة الإنسان ، ويجسد مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية والفكرية تجسيداً رائعاً ولا يكتفي بذلك بل ويعرض أحياناً الحلول من وجهة نظره التي ترجع أسباب المحنة إلى انعدام العلاقات الإنسانية وضعف أواصر نزعات الخير لدى البشر في عالمهم الإنساني الممتد .

ويسعى الشاعر إلى بلورة رؤيته الإنسانية في قصيدة له بعنوان «بين الله والإنسان»[١٦] يقول فيها :

إن كنت لا تعرف سر دمعة يذرفها الفقير
يقي بها خريفه العطشان في لهاثه المرير
فيزرع الوهم على جفونه بستانه النضير
ثماره دانية القطاف
ظلاله وارفة الضفاف
لكنها لا شيء . . حين ينحني ويبسط اليمين
حزينة مسكينة ، مقهورة الدعاء والأنين .
تقول من حسرتها : رباه !
يا مسرعا في خطوه لله
. . . . . .
إن كنت لا تبصر هذا السر في خشوعك القرير
فأي شيء نحوه سبابة كذابة تشير ؟
إن كنت لا تسمع سر آهة على فم اليتيم

(١٥) د . أحمد هيكل - المرجع السابق ص ١٧٩ ، ١٨٠ + د . صابر عبد الدايم - محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة ص ١٦٥ .

(١٦) انظر ديوان لا بد ص ١١١ ، ١١٢ .

لعلنا نطل من وراء هذه الأشطر الشعرية إلى صورة حركية مفعمة بالحواس ، تختلج بمشاعر الأسى والحزن ، وتؤكد فينا مرارة الإحساس بهذا الموقف المؤثر الذي يسوقه الشاعر مشيراً إلى أن إيمان المرء لا يكتمل إلا بمعايشة الغير في مآسيهم وعذاباتهم .

وقد يتحمس محمود حسن إسماعيل للفقراء في عدد كبير من قصائده التي جمع بعضها في ديوانه « لا بد » مؤكدا هدفه الإنساني الذي يدعو إلى خلق نوع من الوئام والمودة والتكافل بين البشر جميعاً فيقول مصوراً فئة الفقراء والمحتاجين[١٧] :

من هؤلاء ؟! هم الذين تسلقت
شطحات عزته على أصلابهم
ومشت على أضلاعهم تئد الصبا
وترش تيه النوح فوق شعابهم
وتلملم القمر الخدين تدسه
في صرة الحرمان تحت ثيابهم

ويأخذ «هذا الصراع - فيما يرى د . علي عشري - صوراً وأشكالاً عبر قصائد الديوان ويتجسد طرفاه في رموز متعددة ، ففي قصيدة «حادي التغيير» يجسد الشاعر من جديد قطبي الصراع : الخير والشر ، والنور والظلمة في رمزين جديدين : الظلام الذي كانت تهيم في دياجيره الإنسانية قبل أن يأتيها حادي التغيير بكل ما يتمثل فيه هذا الظلام من رموز جزئية غنية ، والنور الذي فجرته ثورة السماء في طريق الحرية للإنسان مع حادي التغيير»[١٨] .

ولهذا تعد هذه القصيدة من أمتع القصائد التي شخصت هذا الواقع الأليم وجسدت تلك المفارقة الواضحة وخاصة حين يقول[١٩] :

وأمم ترعى بدين الغنم
لجت بها الأغلال أعتى الظلم

. . . . . .

وغاب وجه الله عن أعماقها
وزمزم الشيطان في أحداقها
تنعي بها موءودة . . ما سئلت
بأي ذنب دون ذنب قتلت !

---

(١٧) السابق ص ١٠٤ .
(١٨) د . علي عشري - دراسة حول ديوان لا بد انظر الديوان ص ١٥٧
(١٩) ديوان لا بد ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

ويشتكيها جائع فقير
أنفاسه بالوهم تستجير
وراسف في ظلمة يولول
واليأس من أنينه يرتجل
ظلت على طغيانها تدور
والكون مشلول الخطا ضرير
حتى أتاها مضرم التغيير
في ليلها الجائي على الدهور

لعلنا حين نقف أمام شعر محمود حسن إسماعيل فإننا نستشعر فيه الإنسان الذي يدافع عن حقوق الإنسان وكرامته فهو يرفض أن تكون حريته في يد غيره من البشر كما ينشد له الحياة الكريمة التي لا تشوبها شوائب الحقد والضغينة ولذلك يجند نفسه لهذه القضية ويدعو لها في قصائد متنوعة منها قصيدة «جنازة الرق» التي يتنسم فيها ضياء الفجر واستشراف أريج الحرية فيقول[٢٠]:

رائع في الظلام ، يفهق بالظلم
وبالبغي يكتوي جانباه
فيه عبد وسيد ويد تعلو
وأخرى في القاع ترجو نداه
فيه للراجعين لليل ، كهف
يجرع الذل صبحه ومساه
فرماه بومضة من ضياء الفجر
فانهار في يديه دجاه
وغدت قصة الأفاعي حديثا
في ظلام الزوال يعوى صداه !

كما نجده في قصائد أخرى يضفي على الحيوان غير الناطق سمة التشخيص فيجعله يعاني ألم القيود مثلما يعاني الإنسان ويتطلع إلى الانطلاق والحرية مثلما يتطلع إليها بنو البشر ، ولأجل هذا يربط في ديوانه «هكذا أغني» بين مأساوية الفلاح المصري ومأساوية الثور» الذي يمثل عضد الفلاح ووسيلته في إنجاز أعمال الحرث والري .

والقارىء لهذه القصيدة يدرك أن الشاعر استطاع من خلال استخدامه لأسلوبي المقابلة والمفارقة ومن خلال تراسل الحواس وتجريد المحسوسات أن يبتكر في مجال الصورة الفنية المركبة التي يصور

(٢٠) ديوان قاب قوسين ص ٤٢ .

فيها تلك الأصوات المنبعثة من النواعير التي يجرها الثور وكأنها صراخ إنسان عليه وأن الماء الذي تجرفه تلك السواقي ليس إلا دموعاً تنجرف من شدة الأسى عليه .

وهكذا يؤكد الشاعر رؤيته للواقع الإنساني بكل ما تحمله هذه الرؤية من دلالة عميقة تجسد - فيما يقول د . شفيع السيد في مقدمة ديوان «هكذا أغنى» - «الإيمان بالحرية كقيمة في ذاتها تتحقق بها الحياة أو تكتسب بها معناها بحيث إن الحرمان منها يعادل فقدان الحياة من الأساس»[٢١] .

ويعرض الشاعر قضيته بصورة أكثر اتساعاً في ديوانه «نار وأصفاد» الذي أهداه كما يتضح في مقدمته إلى «أرض الضياء والحق . . أرض العروبة التي نفذ منها صوت الله لضمير البشرية وتوهج ترابها بالنور لكفاح الأنبياء ، وعطر فضاءها عبير الرسالات وامتدت منها يد السماء لترفع الغشاوة عن الغيوم وتنزع الأغلال من الرقاب وترد الكرامة لجبهة الإنسان»[٢٢] ثم يوظف هذه المعاني شعراً فيقول :

فقلت لناري . . أذن الفجر . فارتعي
وشدي على الأصفاد شد المقاتل
وما مر عمر الطيف . . حتى ترنحت
وذابت قيودي من عميق المفاصل
فكبرت . . جل الله ! عادت حقيقتي
ورنت أناشيدي ، وغنت بلابلي !!

فالشاعر - إذن - يتطلع إلى عالم مثالي تتضام فيه القلوب وتتكاتف فيه السواعد وتتسامى فيه النفوس عن الغرائز النزوات ، ويفقد الإنسان خلاله شهوة الطمع وحب الذات ويحس من أعماقه أنه عضو من أعضاء الجسد الواحد فيتألم لألمهم ويفرح لسعادتهم . وفي ذلك يقول واصفاً هذا العالم :

ليس فيه منزو يجتر أشلاء حياته
يحصد الماضي ويبكيه ويحيا في رفاته
ليس فيه واصل يلعق من أكتاف غيره
فإذا يشبع يرميه هشيما حول قبره
ليس فيه من ضباب الكره والأحقاد ذرة
كل دنياه صبايات وحب ومسرة

---

(٢١) انظر دراسته حول ديوان هكذا أغني ص ٢٧٤ بالديوان .
(٢٢) انظر مقدمة نار وأصفاد الطبعة الأولى ١٩٥٩ مكتبة الانجلو المصرية .

والواقع أن ثمة تشابهاً في الفكر والهدف بين شاعرنا محمود إسماعيل وبين رفيقه هاشم الرفاعي حيث تطلع الثاني أيضاً إلى هذا العالم الذي تنقشع فيه القيود وتنمحي فيه سيطرة الإنسان ويأمل أن يبزغ الفجر الجديد حاملاً معه نسمات الحرية ويرفل فيه بنو البشر بالأمن والأمان والطمأنينة ، ويمكننا أن نستشف هذه المعاني في قوله[٢٣] :

أهوى الحياة كريمة لا قيد لها ... إرهاب لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت سقطت أحمل عزتي ... يغلي دم الأحرار في شرياني

* * *

وكما يعيش الإنسان في صراعات خارجية مع الحياة نجده أيضاً يعيش صراعاً داخلياً مع نفسه يكشف فيه من خلال المونولوج «آراءه في القضايا الإنسانية وبخاصة في غريزة الحب التي يرى أنها رابطة مقدسة يجب أن تغلف بكل معاني الطهر والنقاء كما يجب أن تسهم - على حد قول محمود بن الشريف - «في علاج القلق المدني وعلاج إنسان المدينة الذي فهم الحب على أنه حرية بلا حدود وانطلاق بلا حدود وفوضى بهيمية وإشباع لغرائز حيوانية فانحرف به التيار إلى مهاوي القلق والأنانية والاكتئاب والاضطراب»[٢٤] .

وقد بلور شاعرنا هذه المعاني في قصيدة له بعنوان «الحب» تضمنها ديوانه «نهر الحقيقة» يقول فيها :

حبيبي . . صحا الورد في كل روض
وما زلت نعسان . . أين ابتسامتك ؟
حبيبي . . شدا الطير في كل أيك
وما زلت في الصمت يجري كلامك

وهكذا يسعى الشاعر إلى تأكيد هذا البعد الديني في شعره من خلال حرصه الدائب على «إبراز جوهر الإسلام الوضيء وتنقيته مما قد يرين عليه من صدأ الزيف والتكلف والرياء ، وإظهار طابعه الإنساني وعمق حرصه على كرامة الإنسان وسعادته»[٢٥] .

الكون في شعر محمد حسن إسماعيل :

يقف محمود حسن إسماعيل أمام الأسرار الكونية وقفة متأملة ، ويفسح لهذا المجال عدداً كبيراً من القصائد التي تناثرت في دواوينه المتعددة .

---

(٢٣) انظر ديوان هاشم الرفاعي طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٦٠ .
(٢٤) محمود بن الشريف - الحب في القرآن - سلسلة اقرأ عدد ٤٦٩ سنة ١٩٨٤م ص ٦٤ .
(٢٥) د . علي عشري زايد - المصدر السابق ص ١٧٨ .

والشاعر في وقفته تلك إنما يدعو الإنسان لأن يفتح بصيرته على هذه الآيات الكونية المعجزة ، ويستشعر فيها القدرة الخلاقة المبدعة في أسلوب أخّاذ يوقظ النفس البشرية من إلفها لهذه العناصر .

فالكون - كما نعلم - دليل على خالقه وعلامة من علامات التفرد الوحدانية لما يتميز به من وجوه إبداع وتناسق عجيب يأخذ بالألباب بل ويدفع أصحابها إلى مزيد من التفكر في هذه المعجزات .

والقرآن الكريم يدعونا دعوة مخلصة إلى التدبر فيقول عز وجل : ﴿ إن في خلْق السموات والأرض واختلافِ الليلِ والنهارِ والفلكِ التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزلَ الله من السماء من ماء فأحيا به الأرضَ بعْدَ موتها وبث فيها من كلّ دابةٍ وتصريف الرياح والسَّحاب المسخَّرِ بين السماءِ والأرض لآياتٍ لقوم يعقلُون ﴾ - سورة البقورة : الآية ١٤٦ .

وهنا يقف الشيخ سيد قطب مفسراً لهذه الآية وكاشفاً عن أسرارها ومحتواها الفكري فيقول : «وهذه الطريقة في تنبيه الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون . . تلك العجائب التي تفقدها الألفة حدتها وغرابتها وإيحاءاتها للقلب والحس ، وهي دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذي يراه أول مرة مفتوح العين ، متوقد الحس ، حي القلب»[٢٦] .

أما محمود حسن إسماعيل بحسه الشاعري فيغوص في تأمله لآيات الله في كونه خلال رحلة فكرية يتخطى فيها العقل حدود الزمان والمكان آملاً في الوصول إلى هذه الحقيقة ، ولذا يقف شادياً في قصيدة له بعنوان «أغنية من الكوخ»[٢٧] يناجي فيها نفسه ويدعوها إلى التفكر وخاصة في قوله :

إن رأيت النور مذعور الخطي نحو المغيب
ورأيت الطير ينعاه لأوراد الكثيب
ورأيت العطر نعسان على الأيك الرطيب
ورأيت النهر سرا ، ذاب في الصمت الرهيب
ورأيت الشمس لا شمس سوى طيف الغروب
ورأيت الليل قديساً تهادى للغيوب

. . . . . .

تسكر الدنيا لمرآك تسابيح الجلال
وترين السحر سحر الكون يغني في خيالي
أنت سحري وفتوني وصلاتي وابتهالي

فهنا يعدد الشاعر صور الكون من حوله بل ويخلع عليها الصفات الإنسانية ويتعامل معها كبشر

---

(٢٦) سيد قطب : في ظلال القران - دار الشروق الطبعة ١١ ، ١٩٨٥ ص ١٥٢ .
(٢٧) انظر ديوان قلب قوسين ص ١٦٣ .

مجسداً معانيها وباثًّا فيها الحياة والروح والدليل على ذلك قوله «النور مذعور الخطى ، الطير ينعاه ، العطر نعسان ، الصمت الرهيب ، رأيت الليل قديساً . . إلخ» .

وقد حرص الشاعر على إيراد تيمات بعينها مثلت الطابع العام الذي يؤكد فكر الشاعر وأيديولوجيته ، ولذا نجده يطيل الوقوف عند بعض الألفاظ ويكثر من تكرارها وخاصة فيما يتصل بالبعد الديني الذي يشكل ملمحاً رئيسياً في شعره ومن أمثلة ذلك لفظة الصلاة ، والسجود والنور ، والضحى . . إلخ وهي ألفاظ كثيراً ما تتردد بصورتها اللفظية تلك ، أو في فلك بعض الألفاظ الأخرى المنبثقة من ظاهرة النحت والإبدال والاشتقاق والتضاد والترادف أو غير ذلك من الظواهر اللغوية المعروفة .

إن دوران هذه الكلمات في شعر محمود حسن إسماعيل يشي بالوصول إلى حقيقة هذا الكون والتأمل في صنعه والانصياع لخالقه ومبدعه ، وهذا هو سر تكراره لكلمة «السجود» في قصيدته «النفس» أربع مرات وفي كل مرة ينهي بها بعض الأسطر الشعرية . وكأنه يعرض لنا بعض القضايا المنطقية التي يستفتحها بمقدمات تجرنا إلى نتيجة واقعية يؤكدها مراراً مثلما نجد في قوله[٢٨] :

كلما هل صباح
وهفا كل جناح
وعلى الورد صاح بلبل يشكو هواه
ورددي شكواه واسجدي لله
كلما رن أذان
موقظاً سمع الزمان
وشدا كل جنان ضارعاً يدعو سماه
فاسمعي نجواه واسجدي لله

أو كما نرى في قصيدة أخرى له بعنوان «تاهت في العبير» يقول فيها[٢٩] :

كلما غرد طير في خميلة
وهفت لحب دنياه الجميلة
وتهادى العطر في الربوة من درب لدرب
عاشقاً يبحث في البستان عن قلب وحب
نسي العطر خطاه وسرى نحو شفاهي
وجرى منها دعاء وصلاة . . يا إلهي !

(٢٨) انظر ديوان نهر الحقيقة ص ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٢٩) ديوان قاب قوسين ص ٣٣ - قصيدة الله والطبيعة . ديوان صوت من الله ص ٨٨

ويبدو أن الشاعر يريد أن يفجر أيضاً قضية الإيمان والفناء في الذات العلية ، والانطلاق من خلال الدعاء إلى ما يسمى بالعبودية الربانية التي يصل فيها مقام العبد إلى أن يقول للشيء كن فيكون .

خيم الليل فناديت إلهي
فإذا الكون ضيـــاء
وجرى الدمع فناديت إلهي
فإذا الدنيا صفاء

* * *

وإذا كان الكون قد هيأه ربه وصانعه لخدمة خليفته في الأرض وهو الإنسان فإن ذلك مدعاة لخلق نوع من الترابط والاندماج بينهما ، وهو التحام يظهر لنا بجلاء في شعر محمود حسن إسماعيل حيث يختلط الوصف عنده فلا نعد ندري أيقصد تصويراً للكون من حوله أم يقصد محبوبته التي يكد في طلبها . ولننظر سوياً إلى قصيدته الجزيرة التي تضمنها ديوانه «أين المفر»[٣٠] يقول فيها :

وثـغـرك تغـريـده ماوعـى ترانـيـمـهـا غير قلبي الحـزيـن

فهنا لا ندري أيقصد ثغر الشمس أم ثغر محبوبته . فالأوصاف متداخلة ، والتراكيب متشابهة . ولكي نزيد الأمر وضوحاً نسوق بقية أبيات القصيدة :

وعـيـنـاك علمتـاني الـسجـود وكـيـف أخـر مع الـعـابـديـن
لهم ديـنـهـم في زحـام الـصـلاة وديـني الـضيـاء الـذي تنشرين
عبـدت بك الله ما في دمـي ولا في فمـي غير هذا الـرنـين
فيـاولهـا ناعـسـاً في الجـفـون ويـا سجـدتـان بديـر الجبـين
ويـاقـبلتـان بخـدّ الـصبـاح ويـابسـمتـان بثـغـر الإقـاح
طفـت بين جنـبـي ناراً لجراح فردي لبـلواي سحـر المـنـى
وبثى حـديث الهـوى يـاعيـون

فالشـاعـر - في هذه الأبيات - يخاطب الشمس كما يتضح من بعض تراكيبه الفنية مثل «ديني الضياء الذي تنشرين ، بخد الصباح ، ثغر الإقاح . . إلخ» ولكنه يريد أن يسحب هذه المعاني على فاتنته التي تقطن القصر ، فتداخلت المعاني والصور وذاب بعضها في بعض وبتنا نعيش لحظة غرامه التي يقضيها في دروب الكون وبين عناصره وهذا ما يؤكده أحد الباحثين بقوله : «ومن أقوى ما وصل إليه تطور الشاعر في شعر الطبيعة هو امتزاج الطبيعة بالحب عنده امتزاجاً يصعب معه التفريق بين كل منهما والآخر على حده»[٣١] .

(٣٠) أين المفر ص ٥٤ .
(٣١) د . محمد علي هدية - المرجع السابق ص ١٦٦ .

وقد يصل هذا الامتزاج الحد الذي تقف فيه عناصر الكون مهللة لأمر سعيد بهيج يصيب البشرية ويكون باعثاً للخير والرخاء ، وعندئذ يضفي شاعرنا على الجماد تشخيصاً وتجسيداً ينتقلان به من حيز الجمود والجفاف إلى حيز الحركة والحس .

ويبلغ الشاعر درجة كبيرة في تصوير هذا الالتحام في قصيدة له بعنوان «النور المهاجر»[٣٢] يتحسس فيها خطوات النبي ﷺ في ليلة الهجرة الخالدة يقول فيها :

سار على البيد ، هز الكون مسراه ... صلى عليه ، وحيا نوره الله
شق الصحارى فحيته سباسبها ... وأوشكت برياض الخلد تلقاه
ترعرعت قفرة واخضوضرت جبلا ... وبث فيها صحى الدنيا محياه
وزمزمت .. فهي ترتيل ومسبحة ... ودعوة بأمان الله ترعاه
لم يبق في صدرها حاد ولا نغم ... إلا بما يسحر الأيام غناه
ما للخيام استطارت في مرابعها ... محرورة من غذاب الشوق تهواه
وما لها رفرفت والريح تجذبها ... طيرا إلى الفجر يهديه جناحاه!
. . . . . .
تبارك الله ، كل الأرض ناظرة ... وكلها مهج تهفو لمرآه
تلفت الغيب والتقت عنايته ... بمن تحمل سر الغيب جنباه
. . . . . .
صخر ذليل يعاف الوحش جيرته ... وذرة الوهم لا ترضي بمثواه
أتى إليهم ببحر لا ضفاف له ... من الضياء تروع الشمس صحواه

إنه بذلك يؤكد رؤيته الشعرية التي تتمثل في استجابة الكون لنداء خالقه فالسباسب تحيي ، والصحارى والجبال تتجاوز جدبها وتستحيل رياضها مزدهرة والخيام تستطير شوقاً في مرابعها ، والأرض تطيل النظر رغبة في رؤياه ، والشمس ترتاع من شدة ضيائه . . إلخ .

ويستمر الكون في نشوته لقدوم نبي الأمة وهادي البشرية مسجلا اعترافه بصاحب المعجزات بالتكبير والصلاة والتسبيح وهو في هذا إنما يدور في فلك المعاني القرآنية متأثراً بقول الله تعالى : ﴿ وإنْ من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفْقهُون تسبيحَهم ﴾[٣٣] .

وقد تبرز هذه المعاني الجمة في قصيدته «سجدة في طريق النور» حيث تتوالى صوره الفنية وتتداعى معانيه مشكلة لوحة فنية بديعة تعتمد في تشكيلها على اللون والحركة والحواس حيث يقول[٣٤] :

---

(٣٢) انظر ديوان نار وأصفاد ص ٣٠ .
(٣٣) سورة الإسراء آية ٤٤ .
(٣٤) انظر ديوان لا بد ص ٨٥ .

كل حصاة في الطريق أومأت تنتظر
وكل ذرات الأثير أقبلت تكبر
والريح من كل اتجاه أيقظت ربابها
وأسبلت على جبين أفقها أهدابها
واسترسلت تعزف للسكون من صلاتها
وتستعيد شجوها همساً على لهاتها
وتسمع الجبال من تسبيحها أنغاماً
لم تدر كيف انحدرت من قلبها إلهاماً

وهكذا تبلورت نظرة محمود حسن إسماعيل إلى الكون وجماله وأسراره وعجائبه مؤكداً أن اتقانه نابع من قدرة صانعه الذي خلق كل شيء بقدر ، ومنح الإنسان فرصة التمتع بهذه الآيات ، بل والتفكر فيها بغية الوصول إلى عين اليقين .

ولم يكتف شاعرنا بذلك بل أشار أيضاً إلى التعاطف والتجاوب الذي نشأ بين الكون وبين بني الإنسان مشكلاً بذلك ثنائية واضحة المعالم تخلص إلى البرهنة على وجود علاقات أزلية بدأت مع أول هبوط للإنسان على سطح الأرض .

نظـرة تقويمـيـة :

لعل جولتنا في شعر محمود حسن إسماعيل تؤكد لنا قدرة الأديب على الانطلاق إلى آفاق الفكر الإسلامي وقضاياه بحيث ينصب دوره في بث هذه الملامح في شعره كي يتمكن المتلقي من استشعار هذا الوجود الإسلامي في هذا الأدب .

وليس معنى هذا أنني أدعو إلى تقوقع الأدب في الموضوعات الدينية وداخل إطار هذه الأغراض دون سواها وإنما أريد أدباً يستمد موضوعاته من أحداث الواقع المعيش باعتباره تعبيراً عن موقف صاحبه من الأحداث المحيطة به .

ومن هنا يمكننا أن نعبر عن كيان تراثنا دون أن نتعلق بأذيال مذهب أو تجاه أو على حد قول الدكتور عبد الحميد إبراهيم «نستطيع أن نعبر عن الشخصية العربية من خلال تراثها الخاص وهو الإسلام بكل ما يحمله من إمكانيات المعاصرة والإيجابية ، وبذلك يمكن أن يكون أدبنا عالمياً لأنه يضيف نكهة جديدة تشبه سحر الشرق وتجعل الآخرين يتعلقون به»[٣٥] .

إن محمود حسن إسماعيل - في معظم شعره - يبدو لنا متأثراً بفكره الإسلامي الذي تربى عليه

(٣٥) د . عبد الحميد إبراهيم - المرجع السابق ص ٥١٤ .

في صعيد مصر وعلى أرض الكنانة التي شهدت منذ قديم الزمن تراثاً عقائدياً ارتبطت به ارتباط الروح بالجسد بل وتمخض عن مزيج واضح يجمع بين تراث فرعوني ومسيحي وإسلامي ، ولذا كانت موضوعاته وأفكاره مستمدة من واقعه الذي يمثل الصورة المثلى لمكونات الشخصية المصرية العاشقة لروح التدين والألفة والمحبة .

لعله يترجم من خلال شعره إحساس هذه الشخصية بتراثها وبعالم الروح الذي تتعلق به منذ عهود الفراعنة ، ولذا غدت كثير من قصائد أشبه بتراتيل وترنيمات صوفية يجسد من خلالها حس الأديب المسلم كما يجسد سمة من سمات الطبيعة المصرية في أسمى معانيها . وقد استطاع محمود حسن إسماعيل أيضاً أن يغذي شعره من خلال القصص القرآني ويفيد إفادة تامة مما ورد فيها من عبر وعظات ، وليس أدل على ذلك من استخدامه لحادثة الغراب التي صورت الخلاف بين ولدي آدم «قابيل وهابيل» الذي انتهى بقتل أحدهما للآخر : ﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ﴾[٣٦] . فنجده يركز على هذه الحادثة في قصيدة له بعنوان «راهب النخيل»[٣٧] من خلال مجموعة من الأبيات الشعرية الدالة دون أن يخرج عن حيز الدلالة لها والتلميح إلى فكرتها .

ولم يكتف الشاعر بذلك بل أخذ يسوق بعض الاقتباسات القرآنية التي تنم عن تأثره الشديد بالقرآن الكريم وذلك مثل قوله في قصيدة «راهب الغرب» :

نيلي الخمر ذق طلاه وقل لي ... أين خف الجنان منك فطارا !
سلسل يلهم الهدى للذي ضل ... وإن كان فاجراً كفارا !

فهنا يؤكد تأثره بقوله تعالى في سورة نوح : ﴿ إنك إنْ تذرْهُم يضلُّوا عبدَك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا ﴾[٣٨] .

وعندئذ يمكن القول : إن شاعرنا محمود حسن إسماعيل استطاع أن يحلق في رحاب الإسلام مؤكداً قدرة الأديب على بعث هذا الأريج بما يحقق تضامناً روحياً ساطعاً يسيطر على أجوائنا وحيواتنا .

---

(٣٦) سورة المائدة آية (٣١) .
(٣٧) انظر ديوان هكذا أغني .
(٣٨) سورة نوح آية (٢٧) .